النحو العربي بين الاصالة والكفاية

الدكتور علي حاتم الحسن*

تاريخ قبول النشر ٢٠٠٥/٥/٥

ملخص البحث:

إنّ المتتبع والباحث المتأمل في تأصيل حركة العقل العربي ومرجعياته سيجد ثمة مفاهيم مختلفة ومتباينة في الوقت نفسه ولا سيما إذا ما تعلق الأمر بالمرجعيات تحديدا ، إذ ان العلوم المختلفة التي يتحرك في وسطها العقل العربي تختلف في مرجعياتها أيضا ، بيد أنّ قاسما مشتركا قد تحدد ملامحه ليس على وجه الدقة والوثوقية بل محاولة الاقتراب من الحقيقة ، في ضوء ما هو متوافر من أسانيد ولا سيما التاريخية منها . على أية حال فان النظر إلى علوم العربية بوصفها واحدة من تلك العلوم المتعددة ستقع ضمن هذه التباينات في الأحكام المتعلقة بالاصالة في المرجعيات أو بما يمكن ان نطلق عليه الاقتباس من الثقافات الأجنبية الأخرى ولا سيما اليونانية والهندية ... لذلك جاء هذا البحث ليسلط الضوء على هذه القضية التي أصبحت -فيما نعتقد- تنتمي إلى حقل الميتالغوي . بيد أنّ الضرورة البحثية وضرورة الانتماء إلى التراث العربي – لا اعني التعصب لهذا الانتماء – تفرض عليّ أنْ اعرض ولو على نحو بسيط -ولا سيما أنّ الأدلة السائدة هي الأخرى بسيطة – الأراء المتباينة التي تناولت هذا الموضوع مرة وتأكيد قضية مهمة جدا – في الأقل في تقديري الشخصي – تلك التي تتعلق بمصطلح " الاصالة " . بمعنى ان مصطلح الاصالة ينبغي أنْ يفهم في سياقه الطبيعي الذي يبعده عن التحديدات والتقييدات العصبية، لذلك جاء هذا البحث ضمن هذه التصورات والمحاور تحديدا – أضف إلى ذلك إننا تناولنا في هذا البحث قضية أخرى نجد أنها غاية في الأهمية – تلك هي قضية الكفاية النحوية التي رصدت بل وأطلقت حكما صارما على دراسة النحو العربي ، بمعنى أنها دعت إلى التعلق بالقدر الذي يعين على فهم علوم الشريعة . وقد يعني هذا أنّ اولئك اللذين أطلقوا هذا الحكم كانوا قد نظروا إلى النحو بوصفه علما ثانويا ومساعدا لعلوم رئيسة وحياتية مهمة . وهو أمر يقود إلى الكشف عن التصورات اللغوية الحديثة التي نظرت إلى النحو بوصفه علما وصفيا يدرس لذاته ومن اجله وهو ما يتقاطع مع تلك الأحكام التي تبناها ابو حامد الغزالي . ولا يفوتني هنا ان أشير إلى أنّ هذا النوع من الأحكام ينطلق من مركزية مهيمنة على العقل العربي تلك هي مركزية – العقيدة – التي تقود الدلالة واللغة على نحو عام .

إنّ الاصالة ((لا تفهم ولا ينبغي لها أنْ تفهم على أنها اختراع محض ، بمعنى ان الكتاب اصيل في تاليفه ، وان المؤلف اصيل في تفكيره، وان المؤلف وحده قد اخترع كتابه جملة وتفصيلا، شكلا وموضوعا ، وان تأليفه كان من الطرافة والجدة بحيث لم يفكر احد قبله فيما فكر فيه ، وإنما للاصالة العلمية معنى آخر غير معنى الاختراع ، فلا يقدح فيها أنْ يسبق المؤلف المتأخر إلى موضوعه إذا كان هذا المتأخر قد عرض لأراء من تقدموه وألح عليها بالنقد والنقض، والتصحيح والتزييف ، والإبطال والإقرار ، فعندئذ يعد المتأخر أصيلا لأنه نقض ، ولأنه لمح في غبار النقض والهدم ما يمكن أنْ يكون به جديدا ، ولو كانت مواد هذا الجديد من القديم المنقوض . والمتأخر يعتبر أصيلا أيضا إذا جاء في الفكرة والطريقة من تقدمه في مثل تاليفه))[١].

ونحن ننظر إلى النحو العربي ومن اجل أنْ نمسك ببداية سليمة لهذا النظر يكون من الواجب علينا أولا أنْ ننظر إلى حركة التأليف اللغوية والنحوية ، ثم النظر إليها بما لها وما عليها الأمر الذي يقودنا إلى النظر في كتاب سيبويه من حيث المادة اللغوية التي ضمنت فيه ، ومن حيث المنهج الذي بني عليه . وكذلك يجب أنْ ننظر إلى المقام الذي إلف فيه ، اعني حركة التأليف السابقة والمصاحبة لهذا الكتاب ، بل – ومن اجل أنْ تكون النظرة أكثر عمقا في التحليل والتفسير – يتوجب علينا ، كباحثين ، أنْ ننظر إلى الحركة الفكرية التي أنتجت التأليف على مستوى اللغة والنحو وغيرهما من العلوم .

هذا النوع من النظر يقودنا إلى أنْ نقف أيضا امام جملة من التساؤلات، أولها: كيف كانت حركة التأليف قبل سيبويه ؟ وقبل ذلك هل ثمة حركة فكرية تمخض عنها نتاج مدون ؟ استندت إليه فيما بعد حركة التدوين العربية التي بدأت بالكتاب بوصفه اول مدون نحوي .

قد ينتظر القارئ المتتبع لهذه القضية سندا ماديا مدونا يفصل القول في هذا الأمر . بيد أنّ الحقيقة التأريخية لا تنبئ بذلك مطلقا ، ولا سيما ((ان أوائل علم اللغة العربية ستبقى دائما محوطة

* قسم اللغة العربية – كلية التربية للبنات – جامعة بغداد.

بالغموض والظلام ، لأنه لا يكاد ينتظر أنْ يكشف النقاب بعد عن مصادر جديدة تعين على بحثها ومعرفتها. ومن ثم لا يمكن إصدار حكم قطعي مبني على مصادر ثابتة برأي في أمكان تأثر علماء اللغة الأولين بنماذج أجنبية)) [٢] . ونترك للقارئ متابعة هذا البحث الذي قد يتيح له فرصة الاقتراب من الحقيقة .

على إيه حال فإننا بحاجة إلى تأمل وإنعام نظر ، وإذا اتفقنا – مؤقتا – بالاستناد إلى معرفتنا التأريخية بالمرحلة الزمنية التي عاشها سيبويه أو التي سبقته بقليل – على أنها مرحلة ناضجة فكريا ومؤسسة لمرحلة سيبويه – اعني أنها أنتجت سيبويه الموصوف بأنه اول من إلف كتابا – في النحو مؤسسا على منهج منظم وواع في الوقت نفسه . في هذا المجال ستفرض علينا حركة الفكر نفسها واقعا معينا ، إذ إنّ الأفكار تستفيد من بعضها ولا يمكن تقبل مرحلة ناضجة قريبة من أنْ تكون متكاملة من دون أنْ تكون قد أسست بل واستفادت من سابقتها ، التي نعاني تاريخيا – في الأقل إلى وقتنا هذا – من أنْ نمسك بما يؤيد هذا التفكير تأييدا ماديا . وبسبب من هذا نجد تفسيرا مختلفا فيه في النظر إلى تراثنا اللغوي والنحوي وفي وسط هذا الاختلاف – أود أنْ استفيد من هذه المرحلة التأريخية لحركة اللغة والنحو لأقول ، وهو قول لا اسمح لنفسي – بوصفي باحثا – ان أتبناه معتقدا أو جازما ولا سيما أنّ الدراسات الإنسانية . بجملتها لا يمكن أنْ توصف بأنها تنتج حلولا جازمة وثوقية، بل على العكس من ذلك تلتزم بالافتراضات المستندة إلى أدلة مادية أو تجريدية ناتجة عن المداخلات الفكرية التي تنتج في حقلها التحليلي مرة والتفسيري مرة أخرى . أقول مرة أخرى : إنّ أنتاج مؤلف كتاب سيبويه يثير الاستغراب بل ويدفع بالفكر إلى متابعة تحليلية لمرحلة ما قبل سيبويه التي لا بد ان تكون قد شهدت منهجا فكريا أصبح فيما بعد عاملا مساعدا بل تكوينيا لمرحلة سيبويه ولكتابه .

المهم إننا استطعنا أن نثير جملة من التساؤلات المنطقية لنجعل الباحث في حركة فكرية مستمرة. وقد يكون من المفيد أنْ نشير إلى المراحل الزمنية التي سبقت التدوين النحوي . فتكون المرحلة الاولى قد سبقت الخليل بن احمد الفراهيدي . – وهو استاذ سيبويه – لتمتد إلى قرن من الزمن ، إذ تبدأ " منذ نشأة التفكير النحوي والمحاولات المختلفة للكشف عن الظواهر اللغوية وصبها في قواعد نحوية ، وتنتهي بالخليل بن احمد الذي يعد قمة هذه المرحلة في تحديد الأصول العامة للبحث النحوي وتقنينها وتطبيقها جميعا " [٣] .

إنّ المرحلة التي امتدت عبر قرن من الزمن إلى حيث الخليل قد تكون مرحلة درس عربي خالص، يبتعد عن نقطة التأثير الفلسفي اليوناني ولا سيما المنطق الارسطي ، إذ إنّ جمع المادة اللغوية من أفواه العرب كان الهم الأول للباحث اللغوي العربي ، ثم بعد ذلك كان الاهتمام بتصنيف وتبويب هذه المادة من اجل أنْ نكتشف خصائصها التركيبية ، الأمر الذي يعني ان المشكلات اللغوية والنحوية التي أثيرت في هذه المرحلة وصفت بأنها مشكلات داخلية خاصة بالعربية حسب [٤] هذه الخصوصية العربية –إذن– جعلت كثيرا من الباحثين ينظرون إلى النحو العربي في هذه المرحلة بوصفه تراثا عربيا نقيا،إذ إنّ الرأي ((الذي يتكرر دوما عند علماء العرب،وهو ان علم النحو انبثق من العقلية العربية المحضة))[٥]. وقد يجوز لنا النظر إلى المعطيات التأريخية لتراثنا العربي ، ولا سيما في هذه المرحلة لنزيد القول بأن البيئة الإسلامية كانت قد مهّدت إلى نشوء منطق إسلامي عربي استند إلى بيئتة الإسلامية العربية في الوقت نفسه . وقد يكون للحركة الفكرية التي شهدتها مدينة البصرة في بداية القرن الثاني الهجري اثر بالغ في المنتج الثقافي لهذا انقرن ، اعني آلية ثم نوع هذا المنتج ولا سيما أنّ ثمة اسماء مهمة كانت قد اعتمدت الخط العقلي في حركتها الفكرية ، الأمر الذي افرز – بطبيعة الحال – نوعا ، قد يكون جديدا ، من الفنون العلمية ، إذ إنّ معاصرة بعض من النحويين بعض من المتكلمين كان له اثر في المنهج النحوي – اعني – تأثر النحو العربي بالعقلية الكلامية الإسلامية ، فقد يكون وجود عيسى بن عمر ويحيى بن يعمر جنبا إلى جنب مع الحسن البصري، وواصل بن عطاء دليلا على تأثر النحو بالمنهج العقلي الكلامي . وثمة إشارة أيضا إلى العلاقة التي تربط عمرو بن العلاء بالحسن البصري، وصولا إلى علاقة الخليل نفسه بابن المقفع –على أية حال– فأن هذا النوع من الاختلاط بين المدارس الفكرية المتباينة قد يسر للنحويين الإطلاع ثم الاستفادة من مناهج وأفكار قد تكون جديدة عليهم [٦] . ولا سيما أنّ مدينة البصرة قد احتضنت المعتزلة ((وهم أهل جدل وخصومة فاتصلوا بالمنطق والجدل . ومن ثم اتصلوا بالخطابة غير إننا لا نستطيع أنْ نحكم على مقدار اتصالهم [illegible] وكل ما نعتقده إنهم [illegible] الكلام كما كان يتصورها اليونان في بعض الوجوه))[٧] .

عندما نتابع البيئة البصرية التي شهدت هذه التيارات الفكرية التي قد تكون جديدة على البيئة العربية التي اكتسبت جدتها من المثير الفكري الإسلامي المتمثل بالنص القرآني الشريف . نجد

أنّ النحاة اول المتأثرين ((بالبيئة البصرية التي كانت المعتزلة تتزعم فيها الحركة الفكرية ، فنهجوا منهج المعتزلة ، وتأثروا بهم في الاعتداد بالعقل وطرح كل ما يتعارض معه . فأهملوا الشاذ ولم يعتدوا بإخبار الآحاد التي لا ينطبق عليها ما وضعوا من أصول وأهدروها وقالوا أنها شاذة تحفظ ولا يقاس عليها إذا عدموا الحيلة في تاويلها وإدخالها في أصولها ،ولهذا سمي نحاة البصرة أهل المنطق))[٨] .

وإذا كانت هذه المرحلة من تاريخ النحو العربي قد وصفت بالنقاء ، فإننا نجد بعضا من المتعصبين لهذا التراث – وهو جزء منه- يتهمون الثقافات الأخرى بالقصور ، إذ سخر ابن قتيبة ((من المتعلقين بالثقافات المترجمة ، ويراها على هامش الفكر العربي امشاجا لا غناء فيها ، وتفاهات لا جدوى منها ، بل فيها ما يضر ، إذ تدفع إلى القحة وتدعوا إلى الكفر))[٩] .

اما ابن فارس فيرى في كتابه الصاحبي ، أنّ ما ترجم من ثقافات أجنبية إلى العربية ما هو إلا اعادة الحق إلى أهله ، إذ إنّ الأقوام التي نقلت عنهم هذه العلوم المترجمة كانت قد نسبت إليهم هذه العلوم من قبل الحاقدين على العروبة والإسلام ، إذ إنّ هؤلاء الحاقدين قد اخذوا هذه العلوم العربية فغيروا في ألفاظها ثم نسبوها إلى أقوام غير عربية[١٠].

وقد وجدت مداخلة جميلة في هذا الشأن للدكتور علي ابو المكارم إذ فرق بين نظرة كل من ابن قتيبة وابن فارس إزاء هذه القضية . اذ إنّ القرن الفاصل بينهما كان وراء اختلاف موقفهما من هذه القضية. فالمترجم أو حركة الترجمة في عصر ابن قتيبة كانت قليلة جدا إلا أنها ما لبثت أنْ تعاظمت واتسعت في عصر ابن فارس إذ أصبح انكارها أو اغفالها امرا ليس سهلا ، اعني ان عصر ابن قتيبة يشير إلى قبول فكرة عدم تأثر التراث العربي بما هو خارجي ، اما عصر ابن فارس كان يزخر بالترجمات مما يؤكد تأثر الثقافة العربية بما هو خارجي ، لذلك رد هذا التأثر بأن قال : أنْ لا فرق بين ما هو مترجم وبين الثقافة العربية [١١] .

وقد نجد في الجهة الأخرى تصورا مختلفا تماما ازاء هذه المرحلة ينطلق من فكرة التشكيك بنقائها، ولا سيما عندما يتعلق الأمر بتقويم الشخصيات التي عدت مؤسسة للمشروع النحوي العربي ، كأبي الاسود الدؤلي الذي وصفه صاحب كتاب القواعد النحوية الأستاذ عبد الحميد حسن بأنه قد تأثر بالسريان الذين ابتدعوا علامات الإعراب في لغتهم حفاظا على كتابهم المقدس[١٢]. وقد تكون اللبنة الاولى في بناء النحو العربي قد اعتمدت الشكل الذي استمدها ابو الأسود الدؤلي من النحاة السريان إذ إنّ الدؤلي كان قد سكن العراق الذي كان يزخر بالثقافة السريانية و برجالاتها، الأمر الذي دفع صاحب كتاب اللغة والنحو الأستاذ حسن عون إلى تبني فكرة تأثر الدؤلي بالنحاة السريان الذين أوجدوا الحركات الإعرابية من أجل الحفاظ على كتابهم المقدس[١٣]، ولا سيما أنّ المقدمات متشابهة والنتائج متشابهة ، وكلا العملين حدثا في بيئة واحدة . لذلك من الطبيعي أنْ يكون النحو العربي على يد أبي الأسود الدؤلي هو على طريقة النحو السرياني متأثرا بها وناسخا له ولكنه ، وفي المقابل ، نجد الأستاذ عبد الفتاح شلبي ينقد هذه الفكرة ويردها على الأستاذين أنهما حصرا وربطا نشأة النحو بقضية نقط المصحف ، وهما قضيتان مختلفتان[١٤]. المهم ان هذه المرحلة التي سبقت الخليل وسيبويه وصفت بأنها عربية خالصة . اما إذا وجد ما يشير إلى اتصال النحويين بالثقافات الأخرى ولا سيما اليونانية منها ، فان المعيار العلمي والثقافي السليم يفرض على اؤلئك الباحثين – سواء أكانوا نحويين أم غير نحويين – المتابعة والتعرف على ثقافات الأمم الأخرى ، بيد أنّ هذا النوع من المتابعة لا يستلزم وصف التراث النحوي بعدم الاصالة ، إنْ لم نقل: إنّ المعرفة والإنتاج الفكري تستدعي هذا النوع من التواصل[١٥] .

على الرغم من هذا فان هذه المرحلة وصفت بأنها عربية إسلامية خالصة ، إذ إنّ اللغويين والنحويين اتجهوا إلى بيئتهم بسبب من طريقة الجمع والنظر الاستقرائي المستند إلى المادة العربية الإسلامية الخالصة .

على أية حال فان هذا النوع من البحث يفتقر إلى السند التاريخي القاطع ، إذ إنّ تأثر أبي الاسود بالبحوث السريانية وتأثر الخليل بحنين بن اسحق كان امرا يحتاج إلى تأمل ، وإلى أدلة تاريخية ساندة ، ولا سيما أنّ أبا المكارم ينكر على الاستاذين عبد الحميد حسن وحسن عون هذا النوع من الإحالة ليتبنى -في اقل تقدير في حدود هذه المرحلة- إسلامية النحو العربي، خاصة وأنّ ما أدّعي من اتصال الخليل بحنين بن اسحق كان امرا مرفوضا تاريخيا ، إذ إنّ بين وفاة الرجلين ما يقرب من ثمانين إلى تسعين عاما [١٦] . من خلال هذا التقويم لمرحلة ما قبل سيبويه نكون قد خرجنا بانطباع مستخلص من طبيعة المرحلة نفسها – اعني الطبيعة العرفية لهذه المرحلة – وهو ان الثقافة العربية كانت ثقافة استقرائية مستمدة من البيئة العربية نفسها .

ومن أجل أنْ نكون اقرب إلى الحياد وعدم التعصب لتراثنا العربي تجوز الإشارة إلى أن المنهج الاستقرائي العربي – على وفق ما يراه

بعض الباحثين – كان منهجا استقرائيا قاصرا إذ إنّ اولئك الذين غادروا حواضرهم باتجاه البادية من أجل الجمع وتدوين المادة اللغوية والنحوية لم يكونوا قد خرجوا من اجل قضية نحوية أو لغوية عامة شاملة بل من اجل ما يكفيهم للاحاطة بجلسات الأمراء والخلفاء ، الأمر الذي جعل المنهج الاستقرائي العربي غير قادر على استيعاب اللغة العربية على نحو واسع " واحسب أنّ هذا النقص في الجمع يدخل منه على المنهج النحوي نقص لا ينكر" (١٧) .

اما المرحلة الثانية فتبدأ بتلاميذ الخليل وتنتهي بالزجاج " فتمتد بذلك قرن ونصف القرن" (١٨) .

وقد تكون هذه المرحلة من أهم المراحل التأريخية التي مر بها النحو العربي ، إذ شهد تحولا كبيرا في التعامل مع مادته المستمدة – في اغلب الظن – من منهج استقرائي ، على وفق ما وصفت به المرحلة الاولى ، ولا سيما أنّ الاليه الشفاهية كانت الطريقة الوحيدة في النظر إليه بيد أنّ الأمر انقلب تماما عند سيبويه الذي انتج لنا نظرية نحوية مدونة ومؤسسة على منهج واضح يشير إلى نضوج التفكير النحوي عنده ، الأمر الذي يعني أنّ المرحلة التي سبقته كانت مرحلة ناضجة أيضا ، ولكنها لم تفلح في تأسيس نظرية نحوية مدونة ، ليصبح سيبويه – فيما بعد – رائدا لعملية التدوين وبداية لمرحلة جديدة في تاريخ النحو . إذ إنّ النظر إلى الكتاب ينبئ عن رصانة التفكير النحوي وتمكن العقل العربي من الانقلاب به من مجرد المشافهة إلى مشروع فكري ناضج خاضع إلى منهج علمي ناضج أيضا . وعلينا أنْ نتذكر ان قضية المنهج من القضايا الشائكة والمعقدة في الوقت نفسه ، ليس فقط على مستوى العقل العربي بل بدأ هذا التعقيد منذ بداية التفكير الإنساني بحقوله المختلفة(١٩) .

وقد يقودنا هذا التأمل في كتاب سيبويه من حيث المنهج والتبويب . والترتيب إلى أنْ نضفي على هذا الجديد سمة التفرد بسبب من توقف هذا النوع من المنتج الثقافي بعد سيبويه لمدة امتدت لقرن من الزمن وقد تكون هذه المرحلة قد شهدت جانبا من التأثر بالمنطق الارسطي ، إذ إنّ النحاة في هذه المرحلة استوعبوا هذا التأثر ثم قبلوه بحدود تطبيق النتائج المتمثلة بالأقيسة والحدود والتعليلات ، رافضين بذلك كل ما يتعلق بالجانب النظري لهذا المنطق (٢٠) . وإذا كانت العلة الواحدة من مظاهر تأثر النحو العربي بالمنطق الارسطي والفلسفة اليونانية على نحو عام فإننا سنجدها ممثلة في كتاب سيبويه ولكن على النحو الذي شرحه الخليل بن احمد الفراهيدي نفسه ، ولا سيما ان أقوال الفراهيدي بدت ظاهرة في كتاب سيبويه الذي يعد (أي سيبويه) واحدا من أهم تلاميذ الخليل ، فقد كان الخليل اول من "بسط القول في العلل النحوية بسطا اذهل معاصريه وحيرهم وادى بهم إلى التساؤل عن هذه العلل التي يعلل بها ، وعن مصدرها ، أأخذها عن العرب ؟ وهل هي ما ارادته عند تكلمها بهذه الاساليب ؟ أم انه جاء بها من عنده ؟ وبينا أنّ الخليل قال لهم ، بان تعليلاته التي علل بها العبارات والاساليب العربية والتغيرات التي تطرأ عليها لم يأخذها عن العرب ، ولا يدري إنْ كانت العرب قصدت اليها ، انما علل بما رأه هو عله ما قالته العرب ، فان أصاب الحقيقة فبها وان لم يصب ووجد غيره من النحاة عله أخرى أفضل مما علل هو به فليأت بها ، لان العلل ليست ثابته انما تتبع ذهن مستنبطها والقائل بها في القوة والوضوح" (٢١) . وإذا كانت العلة عند الخليل وبالتالي عند سيبويه ناتجة من بيئتها على وفق الاساليب التي تقتضيها فإننا أيضا نجد ان العلة عند سيبويه واضحة غير مركبة إذ " ليس في كتابه عله إلا وتبين حكما اصليا يعلمنا كيف ننطق العبارات على الوجه الصحيح بحيث نفيد المعنى الصحيح الذي نقصده وليس فيه ما يسمى عند المتأخرين بالعلل الثواني والثوالث "(٢٢) . وإذا كان وجود المنطق الارسطي على نحو خاص والفلسفة اليونانية على نحو عام ظاهرا في كتاب سيبويه فانه ليس بطريقة مستعارة قد تسيء إلى نظرية النحو العربي ولا سيما في مراحل تثبيتها مدونه نحويه ناجزة ، إذ " ان معرفة العرب العميقة لمنطق أهل المقال ، لا تبرهن مع ذلك إنهم استقوه مباشرة من مؤلفاتهم ، على الأقل ليس هناك بحث تاريخي يثبت ترجمة احد هذه المؤلفات باللغة العربية . والأرجح ان المصادر الحقيقية في الإسلام تقوم على شروح الأرغانون أي شروح الاسكندر الافروديسي وسليقيوس وفرفوريوس الصوري ، وعلى مقالات اسكندر وجالينوس المنطقية " (٢٣) . و إذا أخذنا " التعريف" بوصفه مادة تصل النحو العربي بمنطق أرسطو فإننا سنواجه بان هذا الاتصال لم يكن واضحا في المراحل الاولى للنحو العربي . ولا سيما في كتاب سيبويه الذي خالف منطق أرسطو عندما تصدى إلى التعريفات غير المباشرة للمواد النحوية . في حين سنجد التأثير الارسطي خلال القرن الرابع واضحا ولا سيما في مادة " التعريف"، " وليس مهما أنْ يكونوا قد طبقوه في تعريفاتهم ، وإنما المهم أنْ وجدوه بين أيديهم أفضى بهم إلى مناقشة واعية تنتج عنها اختيار طريقة أخرى في التعريف . ولعل الزجاجي خير من يمثل هذا الاتجاه"(٢٤) وهكذا الأمر مع العلة النحوية ، ولكنه ((ليس مهمًا أنْ يكون تعليل النحاة هو هو تعليل أرسطو ، ولكن المهم انه كان في

ايديهم وتحت بصرهم حين اخذوا يتناولون ظواهر اللغة ويضعون لها الاحكام))[٢٥] والواقع ان ((التاريخ لا يقدم شيئا ماديا مؤكدا عند اتصال النحاة الاوائل بالمنطق الارسطي اتصالا مباشرا فالروايات عن هذه الفترة مضطربة لكن اضطرابها لا ينفي وجود هذا المنطق في المناخ الذي كان سائدا وقتذاك . ونحن لا نعرف على وجه الدقة متى عرفت إعمال أرسطو طريقها إلى الفكر العربي في مراحلها الاولى ، والذي تذكره الأبحاث ان العرب اتصلوا بالمنطق الارسطي من طريقين ، الأول ما قدموه النحاة السريان ، والثاني ما تم ترجمته من هذا المنطق إلى العربية))[٢٦] .

وقد تكون المشكلات التي واجهتها البيئة العربية مشابهة إلى المشكلات التي واجهتها سابقا البيئة اليونانية ، الأمر الذي قد يفسر ((التشابه في الطرائق بين العلوم العربية والمنطق اليوناني))[٢٧] اما المرحلة الثالثة في تاريخ النحو فتبدأ – عند أبي المكارم بالسراج لتظل خصائص هذه المرحلة ممتدة عبر القرون التالية وصولا إلى العصر الحديث [٢٨] . وقد تميزت هذه المرحلة بتبعيتها المطلقة للمنطق الارسطي ، إذ ((تم في هذه المرحلة اعادة – وضع النحو – وضعا جديدا ينطلق فيه من النظرة المنطقية الصورية بخصائصها الميتافيزيقية التي تبحث عن الماهية دون أنْ تكتفي بتمييز الذوات أو الاحداث بعلامات خارجية سطحية وتهدف إلى الكشف عن العلة الغائية بغية تحقيق الاتساق في البناء النحوي والوصول إلى الانسجام بين جزيئاته))[٢٩] . ويبدو انّ خضوع هذه المرحلة للمنطق الارسطي بكلياته وجزيئاته أصبح امرا لا يمكن رده على الرغم من وجود اصوات نقدية حاولت أنْ ترده دون أنْ تحقق هدفها . فهذا ابو علي الفارسي يوجه نقدا لاذعا للرماني عندما قال : ((لو كان النحو على ما يقوله الرماني لم يكن معنا منه شيء، ولو كان النحو ما نقوله لم يكن معه منه شيء))[٣٠] . وثمة قول آخر في هذا الشأن يحذر من التعامل مع بعض الذين تبنوا فلسفة النحو فيقول : ((اياكم وتعاليل الرماني والوراق ونظرائهما)) [٣١] . وبعد أنْ نظرنا في تقويم النظرية النحوية العربية مقسمة على ثلاث مراحل، قد يكون من المفيد أنْ نعرض بايجاز بعضا من الاراء المقومة – على نحو عام – لهذه النظرية ، إذ ابدى الدكتور شوقي ضيف رأيا مفاده ان الخليل كان يتقن المنطق وما يتصل به من مقياس ولا سيما أنّ مترجم هذا المنطق ، ابن المقفع ، وهو صديق الخليل [٣٢] . في حين شبه الدكتور جرجي زيدان تاريخ النحو العربي بتاريخ النحو اليوناني [٣٣] اما الأستاذ احمد امين يرى أنّ الثقافة اليونانية كانت منتشرة في العراق وكانت قد تسربت إلى العرب في وقت كانت قد ازدهرت فيه حركة التدوين ، لذلك صبغت الثقافة العربية بالصبغة اليونانية في الشكل والموضوع [٣٤] ولم يتوقف الأمر عند هذه الحدود ولا سيما عندما نطلع على آراء بعض من المستشرقين ، فقد قال ديبور في هذا الشأن : ((وقد اثر منطق أرسطو في علوم اللسان التي لم يكن شأنها جمع الشواهد والمترادفات ونحوها ، لأن هذه تتقيد بالموضوعات التي تعالجها)) [٣٥] . في حين ذكر بروكلمان – وهو يتحدث عن الخليل بن احمد الفراهيدي – انه ((ابتكر شكل الحروف وعلامات القراءة استنادا إلى نماذج سريانية))[٣٦]. وقد لا يكون بعيدا عن المتابع لهذا الموضوع أنْ يجد ثمة من يرى أنّ الثقافة العربية أو الفكر العربي الإسلامي بأسره عالة على الثقافات الأجنبية وعلى الفكر اليوناني بصفة خاصة إذ إنّ ثقافتنا العربية ظلت ثقافة انتخابية قوامها الاقتباس من الأخرين. وفي الجهة الأخرى يقف بعض الباحثين ولا سيما الدكتور مهدي المخزومي الذي تبنى أصالة النحو العربي في النشأة والوجود، إذ ربط هذه الاصالة بأسبابها الآتية :

١. ارتباط النحو العربي بالقران الكريم ولا سيما أنّ القران الكريم أدهش العرب كلما سمعوه وحير ألبابهم وعقولهم بسحر بيانه وروعة معانيه ودقة ائتلاف ألفاظه ومبانيه. وكانت مسألة الإعجاز قد شغلت عقول العرب فبحثوا فيها مما دفعهم لمعرفة النحو العربي أو التمكن من ضبط اللغة العربية بان يجعلوا لها نحوا وضابطا لأستشكاف معاني القران الكريم .
٢. نظرية العامل التي كانت دليلا واضحا على عدم تأثر النحو العربي بأي مؤثر خارجي ، لان لغات العالم كلها لم تتوافر على فكرة العامل التي هي من خصائص العربية حسب [٣٧] .

وكان المخزومي قد عزز رأيه هذا عندما عرض لوظيفة النحوي إذ قال : ((ليس من وظيفة النحوي الذي يريد أنْ يعالج نحوا لغة من اللغات أنْ يفرض على المتكلمين قاعدة ، أو يخطئ لهم اسلوبا ، لان النحو دراسة وصفية تطبيقية لا تتعدى ذلك بحال)) [٣٨]. وإذا كان المخزومي قد دافع عن أصالة النحو العربي بوصفه خاليا من التأثيرات اليونانية ، فان ثمة من يدافع عن هذه الاصالة ولكنه بطريقة أخرى مشيرا إلى النزعة المحلية في البناء النحوي العربي ، إذ إنّ المنطق الارسطي قد تمثلته العلوم العربية أو النحو العربي بشكل خاص حتى أصبح جزء من

تراثهم ، ولا سيما ((ان الفكر العربي ما لبث ان امتص الحقائق المنطقية وأعطاها طابعه ، حتى بدت بعد ذلك جزء من هذا الفكر أصيلاً فيه ، وليست غريبة عنه ووافدة عليه))[٣٩] . وقد أشار القدماء إلى هذه القضية عندما قال السيرافي ((النحو منطق ولكنه مسلوخ عن العربية))[٤٠] . وقد لا يكون هذا التحليل بعيدا عن الواقع ولا سيما ان نشاط حركة النحو العربي جاء متزامنا مع نشاط حركة علوم الدين وعلوم الجدل الكلامي . وقد يكون من المفيد أنْ تقول إنّ هذه الاراء يمكن أنْ تقع في خانة المنبه والمثير وقد يكون لنا الحق في أنْ نتبنى ما نعتقد انه الاقراب إلى الواقع استنادا إلى هذا المنبه أو هذا المثير .

وعلى هذا التأسيس أود أنْ ارجع بالقارئ الكريم إلى النص الذي افتتحت به هذا البحث ليصبح – بالنسبة لي في الأقل – التحليل الاقرب إلى الواقع .

وإذا كان النحو العربي خاضعا إلى الاراء المتباينه التي تناولت نشأته ووجوده فيما بعد فانه خضع أيضا إلى فكرة الكفاية . بمعنى إننا نحتاج إليه بوصفه عاملا مساعدا في فهم وتحليل الاحكام الشرعية . في حين نجد بعضا من الاراء التي تدفع بعلم النحو إلى الدخول في قانون تأليف الكلام ، وهو امر يخرج النحو من دائرته الضيقة المتعلقة بحركة اواخر الكلم . من هنا يصبح للنحو امتداد لغوي اوسع منه في حال اقتصاره على اواخر الكلم ، لذلك يكون الحديث عن الكفاية النحوية امرا يحتاج إلى تأمل وعناية في التفكير ، ولا سيما أنّ تأليف الكلام لا يقوم على اساس الكفاية أو على اساس فكرة التصحيح اللغوي ، بل هي اوسع بكثير من هذا الأمر إذ إنّ البناء اللغوي يقوم على فكرة التأليف ليصبح النحو في ضوء هذه الحقيقة متعلقا بالانتاج اللغوي [٤١] .

وضمن هذ التأسيس سيكون النظر إلى النحو العربي منطلقا من مفهومين مختلفين ، وسيترتب على هذا الاختلاف تقييم مختلف أيضا ، إذ إنّ النحوي ينظر إليه – أي النحو – بوصفه علما لا يتوقف عند حدود بعينها ، بل يخضع إلى حركة نشطه – وهو قادر على استيعاب هذه الحركة – ليصبح بموجبها علما متجددا خاضعا إلى التفسير والتحليل والاجتهاد. ومن اجل أنْ نتعامل مع الاجتهاد بوصفه مصطلحا فقهيا يتوجب معرفة قدر صالح من اللغة تمكن من فهم لغات العرب((والتمييز بين الالفاظ الوصفية والاستعارية ، والنص والظاهر ، والخاص والعام ، والمطلق والمقيد والمجمل والمفصل ، وفحوى الخطاب ، ومفهوم الكلام ، وما يدل على مفهومه بالمطابقة ، وما يدل بالتضمن ، وما يدل بالاستتباع ، فان هذه المعرفة كالآله التي بها يحصل الشيء ، ومن لم يحكم الآله ، والأداة لم يصل إلى تمام الصنعة))[٤٢] .

اللغة والنحو – أذن – ضمن هذا المفهوم يصبحان آلة توصل إلى معرفة شئ اخر ،وهو ما يؤكد دور النحو في تحصيل علوم الشرع بيد أنّ هذا الدور لا يعدو كونه وسيلة لتحصيل علم اخر ارفع منه شانا إلا وهو علم الشرع ، لذلك يكتفى من علم النحو ما يخدم علوم الشرع. الأمر الذي جعل الغزالي يحدد حاجة الشرع إلى النحو على نحو واضح عندما تكلم على اناس ((اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغتروا به وزعموا إنهم قد غفر لهم وانهم من علماء الامة ، إذ قوام الدين والسنة بعلم النحو واللغة ، فافنوا أعمارهم في دقائق في النحو واللغة وذلك غرورعظيم ، فلوا عقلوا لعلموا ان لغة العرب كلغة الترك والمضيع عمره في لغة العرب كالمضيع عمره في لغة الترك والهند وغيرهم . وانما فارقهم من اجل ورود الشرع . وكفى من اللغة علم الغريبين في الكتاب والسنة ، ومن النحو ما يتعلق في الكتاب والسنة ، واما التعمق فيه إلى درجة لا تتناهى فهو فضول مستغنى عنه وصاحبه مغرور))[٤٣] . فلا شك – أذن– في انه نظر إلى النحو من قبل وظيفته في تحديد الدلاله – ولا شك في ان القواعد النحوية واللغوية عنده كانت تمثل طريقا للوصول إلى الاحكام الشرعية ، والتاكد من صحة استنباطها، كما أنها كانت الاساس الذي تستند إليه تفسيرات النصوص الشرعية المختلفة . فالفقهاء كانوا يدعمون وجهات نظرهم بالقواعد النحوية من اجل الوصول إلى حكم شرعي مبرهن يقرع ببرهانه أي تفسير اخر وإذا كانت معرفة الاصول عند المتكلمين ولا سيما عند القاضي عبد الجبار المعتزلي تصنف على نوعين : اما اجمالية أو تفصيلية . فان المكلف يحتاج إلى الاجمالية حسب لأنه لا يكلف اكثر من المعرفة الاجمالية من الاصول ، في حين يتوجب على العلماء معرفة الاصول على نحو تفصيلي هناك – أذن – كفايه معرفية تنسجم مع التقسيم المعرفي للناس . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان علوم الشريعة تجهد نفسها في توظيف كل المعارف المرتبطة بتأسيسها الفكري من اجل دعم هذا التأسيس دعما عقليا استدلاليا .

وقد يكون النحو احد هذه المعارف أو العلوم التي وظفت من اجل فهم الشريعة أو

العقيدة وتحليلها ، إلامر الذي يدفع الكثيرين من علماء الكلام إلى الاكتفاء من دراسة النحو بالقدر الذي يعينهم على فهم وتحليل عقائدهم الإسلامية من دون الاسهاب أو الاغراق في التحليل والتعليل النحويين .

وإذا تأملنا اقوال بعض المتكلمين وهم يتحدثون عن علم الاصول وما يحتاجه من معرفة اجمالية أو تفصيلية على وفق التقسيم المعرفي للناس فإننا نلاحظ ان المعرفة التفصيلية اسندت إلى العلماء تحديدا ثم اطلق لهم العنان في التفكير فيها ، الأمر الذي يدفعنا إلى القول : إنّ النحو عندما ينظر إليه بوصفه علما مستقلا وليس عاملا مساعدا لعلم اخر فأنه يحق لطالبيه والباحثين فيه أنْ يمارسوا المعرفة التفصيلية التي احتكرتها العقائد لذلك فان الكفاية النحوية ضمن هذا التأسيس تصبح محل خلاف بين العلوم المختلفة ، بمعنى ان النحو إذا ما نظر إليه بموجب المعرفة التفصيلية فانه سيخضع إلى التحليل والتفسير ليبتعد عن مبدأ الكفاية التي تبناها الغزالي. اما إذا نظر إليه بموجب المعرفة الإجمالية فانه سيخضع إلى مبدأ الكفاية التي اشار اليها الغزالي ، الأمر الذي يدفعنا إلى القول : إن ثمة فرقا بين العلوم نفسها وهي تقومّ علم النحو ، إذ إنّ العلوم العقيدية أو الشرعية ستنظر إلى النحو بوصفه علما ثانويا لا تحتاج إليه إلا من اجل فهم الشريعة حسب .

لذلك يكون من الواجب العلمي أنْ ننظر إلى دعوة الغزالي ضمن إطارها ومحدداتها الأمر الذي يسمح لنا بتقويم علم النحو مرة أخرى ولكن هذه المرة ستستند إلى مبدأ المعرفة التفصيلية . فعندما يتعامل علماء الأصول مع علم الأصول نفسه يشيرون إلى وجوب أنْ يخضع هذا العلم إلى المعرفة التفصيلية عندما يستند إلى العلماء والمفكرين . فكذلك نقول : إنّ علم النحو يجب أنْ يخضع إلى هذه المعرفة التفصيلية عندما يسند إلى العلماء والمفكرين . وسنكتفي منه بالقدر المعقول عندما يسند إلى غير المتخصصين وقد يذكرنا هذا التقييم بمنطق السيميوطيقا في نظرتها إلى العلوم المختلفة حين أكدت أنها تدعو إلى الغاء الانشطار المعرفي مع الاحتفاظ بالفروق المعرفية ، هذه الفروق هي التي تتيح للعلوم المختلفة الاحتفاظ باستقلاليتها عندما ينظر أليها من منظار متخصص حسب .

ولا يفوتني أنّ أشير إلى ان العلوم اللغوية الحديثة أكدت النظر إلى اللغة وإلى النحو بوصفهما علمين يجب أنْ يخضعا إلى النظرة ، الوصفية . الأمر الذي بمقتضاه يمكن أنْ نذكرّ بدعوة جومسكي إلى النحو التحويلي التوليدي. وهي نظرة تخرج النحو من المساحة الهامشية التي أشار إليها الغزالي ليصبح علما خاضعا إلى العقل وأدواته .

قائمة المصادر والمراجع:

١. بلاغة أرسطو بين العرب واليونان – د.ابراهيم سلامة ط٢ – الانكلو – مصر ص ١٥-١٦ .
٢. تاريخ الأدب العربي – بروكلمان- ج٢ – ترجمة د. عبد الحليم النجار –دار المعارف – ١٩٦١م ص ١٢٣ .
٣. تقويم الفكر النحوي – د.علي ابو المكارم – دار الثقافة – بيروت – ص ٦٨
٤. المصدر نفسه –ص ٦٨- .
٥. تاريخ الأدب العربي – بروكلمان – ج٢- ص ١٢٣ .
٦. النزعة المنطقية في النحو العربي – د.فتحي عبد الفتاح الدجني – وكالة المطبوعات – الكويت – ص ٣٨ .
٧. بلاغة أرسطو ص ٦٥-٦٦ ، وينظر النزعة المنطقية في النحو العربي ص ٣٩ .
٨. الخليل بن احمد أعماله ومنهجه ص ٤٠ .
٩. تقويم الفكر النحوي ص ٦ .
١٠. ينظر :الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها-ابن فارس- تحقيق-مصطفى الشويمي- بيروت – ١٩٦٤ – ص٣٨.
١١. تقويم الفكر النحوي المصدر نفسه ص٧-٨ .
١٢. المصدر نفسه ص ٦٩ .
١٣. المصدر نفسه ص ٦٩ .
١٤. المصدر نفسه ص ٧١ -٧٢ .
١٥. اللغة والنحو د. حسن عون –ط١- ١٩٥٢م- ص ٢٤٨ ، وينظر : القواعد النحوية مادتها وطريقتها – عبد الحميد حسن- ط٢ الانجلو مصرية – ١٩٥٣م ص٧٩ ، وينظر: مسالك الثقافة الاغريقية إلى العرب اوليري – ترجمة د.تمام حسان-الانجلو المصرية – ص٢٤٥ .
١٦. تقويم الفكر النحوي ص٧٣-٧٥ .
١٧. مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والادب – امين الخولي – دار المعرفة – ط١ – ١٩٦١- ص
١٨. تقويم الفكر النحوي ص ٣٨ .
١٩. البراكماتية ومشكلة المنهج –د. علي حاتم الحسن –مجلة كاية التربية للبنا –

مجلد١٥- العدد -١- ٢٠٠٤م ص ٨٦-٩٠ .

٢٠.تقويم الفكر النحوي ص٣٨.

٢١.دراسات في كتاب سيبويه - د. خديجة الحديثي - ص١٨٧ .

٢٢.المصدر نفسه ص١٨٩، وينظر: الكتاب ج١ -ص٤٠٩ .

٢٣.منطق العرب من وجهة نظر المنطق الحديث - عادل فاخوري - دار الطليعة- بيروت - ط١ -١٩٨٠ ص .

٢٤.النحو العربي والدرس االحديث - بحث في المنهج - د. عبدة الراجحي - دار النهضة العربية - ١٩٨٦ - ص٧٥-٧٧.

٢٥.المصدر نفسه ص٨٨ .

٢٦.المصدر نفسه ص٦٢ .

٢٧.منطق العرب من وجهة المنطق الحديث ص٢٧ .

٢٨.المصدر نفسه ص٩٣ .

٢٩.المصدر نفسه ص٩٤ .

٣٠.نزهة الألبا -ابن الانباري -ط حجر- ١٢٩٤ هـ ، ص٣١٠ ، وينظر : الإيضاح في علل النحو - الزجاجي- تحق مازن المبارك- دار الروبة- القاهرة ١٩٥٩م، ص ٦٦ .

٣١.بغية الوعاة - ص٣٤٤ - ، وينظر : في أصول اللغة والنحو ص ١٣٢ .

٣٢.تاريخ الفلسفة في الإسلام - ديبور - .

٣٣.تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي - د.جرجي زيدان - .

٣٤.فجر الإسلام - د. احمد امين - ط٢ - لجنة التأليف والترجمة والنشر -١٩٣٣م- وينظر : ضحى الإسلام -د.احمد امين - ج١- ط٢- ١٩٣٤م - ص

٣٥.تاريخ الفلسفة في الإسلام - ديبور- ص٥٦ .

٣٦.تاريخ الأدب العربي - بروكلمان - .

٣٧.النزعة المنطقية في النحو العربي ص ٣٥-٥٠ .

٣٨.في النحو العربي - نقد و توجيه - د.مهدي المخزومي - دار الرائد العربي - بيروت - ط ٢ -١٩٨٦ - ص١٩ .

٣٩.تقويم الفكر النحوي ص ١٠٠ .

٤٠.النزعة المنطقية في النحو العربي .

٤١.إحياء النحو - ابراهيم مصطفى - لجنة التأليف والترجمة والنشر -١٩٣٧- ص

٤٢.الملل و النحل - الشهرستاني - تحقيق عبد العزيز الوكيل - ج٢ - مؤسسة الحلبي و شركاؤه - القاهرة -١٩٦٨ - ص٤ .

٤٣.الكشف و التبيين في غرور الخلق أجمعين - الغزالي- تحقيق جميل ابراهيم حبيب - مكتبة النقاء - بغداد - ١٩٨٤ ص ٢٢ .

The Arabic grammar between originality & sufficiency

Dr. Ali Hattam Al-Hassan
Arabic Dept.-College of Education for Women - Baghdad University

Summary:

Both continuing & thoughtful researcher in establishing the movement of Arabic mind and its references will find some of different concepts in the same time especially if it is relates with these references .The different sciences by which Arabic mind is moved were also different in its references . A common divider may determined mind aspects not as scrutiny and trusty ones but as an approach try to the fact in the frame of historical aspects indefinitely.

However, looking at Arabic sciences as numerous one will be within the rules concerning originality or what can be named "quotation" from other foreign cultures specially Greece & Indian ones.

This research high lights not only on this case which belongs to Metalogy field as we thinks but on both research and belongingness necessity that relates to Arabic heritage.

I don't mean by that Iam obliged to show the different opinions which deals with this subject but at least to confirm very important cases which concerned with originality term.

Originality must be understood within its nature context which makes it away from fanaticism limits. Therefore, this research comes within these imaginations and limits definitely. It also deals with important cases such as grammar sufficiency one which issued a strict rule on the Arabic grammar study. This case urged for understanding Sharia sciences.

Those who issued this rule considered the grammar as second support science for these important main living sciences. This matter leads to discover recent linguistic imaginations which considered grammar as describing self-study science that contrasted with Ahmed Al-Ghazali'one.

I want to refer here that this kind of rules is issued by a centralization which controls the Arabic mind which is ideology centralization leading to language & significance publicly.